الملأ في القرآن الكريم ودوره في فساد المجتمعات

د. صبحي رشيد اليازجي*

سلم البحث في ١٤٤٠/٨/٣هـ بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ١٤٤٠/٩/١١هـ

ملخص البحث:

يسلط هذا البحث الضوء على مفهوم الملأ في القرآن الكريم وأثره على تشكيل معتقدات وأخلاق المجتمع، وكيفية الاستفادة من ذلك في إصلاح الأمة والعمل على استنهاضها من جديد، ولتحقيق ذلك قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: مفهوم الملأ في القرآن الكريم: عرفت فيها كلمة الملأ لغة واصطلاحاً، وورود هذا المصطلح في الآيات القرآنية، والفرق بينه وبين مفهوم البطانة.

والمبحث الثاني: صفات الملأ وأخلاقهم، ودورهم في توجيه المجتمع: تناولت ذلك من خلال استقراء صفات الملأ في القرآن الكريم، وما لهذا الملأ من تأثير على سلوك المجتمع.

والمبحث الثالث: منهج القرآن الكريم في إصلاح الفساد: بينت فيه منهج القرآن في إرسال الرسل للعامة والخاصة، وتوجيههم إلى مبادئ الإسلام ومكارم الأخلاق. والخاتمة: تحتوي على أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

Research Summary:

This research highlights the concept of Chiefs in the Holy Quran and its impact on the formation of the beliefs and ethics of society. Also how to take advantage of this in reforming the nation and work to reawaken it again. To achieve this, the research was divided into an introduction, three topics and a conclusion, as follows:

The first topic: the concept of chiefs in the Holy Quran: I defined the term of Chiefs. Then I demonstrate the emergence of this term in the Quranic verses, and the difference between it and the concept of entourage.

The second topic: the qualities of the Chiefs ,their morals, and their role in guiding the community: I dealt with this through extrapolating the characteristics of Chiefs in the Holy Quran, and their impact on the behavior of society.

The third topic: The approach of the Holy Quran in the elimination of corruption: I explained the approach of the Quran in sending messengers to the public and private, and guide them to the principles of Islam and ethics. Conclusion: It contains the most important findings of the research

* أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بكلية أصول الدين الجامعة الإسلامية . غزة.

المبحث الأول
مفهوم الملأ في القرآن الكريم
المطلب الأول: مفهوم الملأ لغة واصطلاحاً

أولاً: مفهوم الملأ:

١) **تعريف الملأ لغة:** اسم للجمع كالقوم والرهط وجمعه أملأ، وهم الجماعة الذين أمرهم واحد ورأيهم واحد، لأنهم يمالىء بعضهم بعضاً، أي: يعاونه ويوافقه، أو لأنهم ملأى بالأحلام والآراء الصائبة(١)، أو لأنهم يملؤون العيون بهجة والقلوب هيبة(٢)، والملأ عند أكثر أهل اللغة الأشراف(٣)، وقال الزجاج: الملأ هم الوجوه وذوو الرأي(٤)، وقيل: وجوه القوم وأشرافهم(٥)، واشتقاقه من ملأت الشيء، وفلان مليء إذا كان متكثراً(٦)، والملأ الرُّؤساءُ سُموا بذلك لأنهم مِلاءٌ بما يحتاج إليه، والملأ مهموز مقصور: الجماعة، وقيل: أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدَّمُوهم الذين يُرْجَع إلى قولهم، وكذلك الملأ إنما هم القوم ذوو الشارة والتَّجَمُع للإدارة(٧)، واشتقاقه من مَلَأْتَ الشيء، ويقال: فلان مليء إذا كان مكثراً(٨)، وسموا بذلك لأنهم ملئوا بما يحتاج إليه من كفايات الأمور، وتدبيرها، من قولهم (ملؤ) الرجل ملاءة فهو مليء إذا كان مطيقاً له؛ لأنهم يتمالؤن أي يتظاهرون ويتساندون(٩)، والملأ أيضاً: حُسن الخُلق، يقال: ما أحسن ملأ بني فلان؛ أي: عشيرتهم وأخلاقهم(١٠)، ومنه الحديث(١١)"أحسنوا الملأ فكلكم سيروى"(١٢)، فحسن الخلق من سجايا الملأ، وهم الشراف الكِرام(١٣)، وإنما خُصُّوا بالذكر؛ لأنه إذا آمن الأشراف آمن الأتباع(١٤).

ومن هذه المعاني والتعريفات جميعاً يمكن اعتبار أن مفهوم البطانة مفهوم خاص لمن يحيط بالشخص، أو الحاكم، ويطلع على أخص أسراره، وقد يكون ذلك شخصاً أو أشخاصاً عدة، وقد يكون مشهوراً بحسن الخلق أو سوئه، وقد يكون من القوم أنفسهم، أو من قومٍ آخرين كما دلت عليه الآية القرآنية التي ذكرت البطانة(١٥)، أما مفهوم الملأ فيشمل البِطانة وغيرها في بعض الأحوال، فمفهوم الملأ ينحصر في مفهومين بحسب البيئة والمرحلة الزمنية.

ثانياً: مفهوم البطانة.

١) **تعريف البطانة:** البَطْنُ خلاف الظَّهْر، والبِطَانةُ خلاف الظِّهَارة، وبِطانةُ الثوبِ خلاف ظهارته، والبطانة في الأصل داخل الثوب، وجمعها بطائن، وبطانةُ الرجلِ خاصَّتُه، وأَبْطَنَه اتخذه بِطانةً، وأَبْطَنْتُ الرجل إذا جعلته من خَواصِك(١٦)، وقيل: بَطَنَ به دخل في أمره، ويَبْطنُ بُطوناً وبطانةً(١٧). وقيل: بِطانةُ الرجل صاحبُ سرِّه وداخلةُ

أمره الذي يشاوره في أحواله([١٨])، وفي الحديث عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ عن النبي ﷺ قال: "ما بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ ولا اسْتَخْلَف مِنْ خَلِيفَةً، إلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وتَحُضُّهُ عليه، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ تعالى"([١٩]).

٢) ورود مصطلح البطانة في القرآن الكريم: فقد ورد مصطلح (البطانة) في القرآن الكريم في موضعٍ واحدٍ وفي سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: آية ١١٨)، في معرض حديثه عن منافقي أهل الكتاب[٢٠].

ثالثاً: ورود مصطلح (الملأ) في القرآن الكريم:

ورد مصطلح (الملأ) في القرآن الكريم ثلاثين مرة في اثنتي عشرة سورة، في سورة البقرة والأعراف ويونس وهود ويوسف والمؤمنون والشعراء والنمل والقصص والصافات وص والزخرف، وقد جاء هذا المصطلح بحسب الرسم العثماني كالتالي:

١) معرفاً بأل التعريف (الملأ) ٢٢ مرةً، ومضافاً (ملأه) مرة واحدة، و(ملئه)٦ مرات، و(ملئهم) مرة واحدة، أما الحديث عن (الملأ الأعلى) في سورتي (ص) والصافات ووردت برسم مختلف (الملؤا) ٤ مرات فقط في القرآن الكريم كله [٢١].

٢) وتبين كلمة (الملأ) برسمها العادي أنهم هم غلبة أفواههم وأصحاب التلمود وهم الملأ الذي يملأ العين.

٣) أما (الملؤا) برسمها المختلف فقد جاءت في القرآن الكريم فقط البطانة الأشد قرباً من السلطان أو الحاكم وهم كبراء القوم ومستشارو السلطان الذي يأخذ في معظم الأحيان برأيهم.

٤) ولقد جاءت حروف الكلمة مختلفة عن حروف كلمة (الملأ) حيث استبدلت الهمزة بحرف واو أعلاه الهمزة وهو ما يضخم معنى الكلمة بسبب أنهم بطانة السلطان ومستشاروه الأقربون.

٥) ونرى ذلك في (ملأ) الملكة بلقيس حيث يذكر القرآن الكريم أنهم (الملؤا). قال سبحانه وتعالى: ﴿قالت يا أيها الملؤا أفتوني في أمري﴾ (النمل ٣٢)

٦) كذلك الحال (ملأ) سيدنا سليمان فهو ملأ عظيم قادر أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه... بل قبل أن يرتد إليه طرفه...لذا جاء هذا (الملأ) برسم

مختلف. وهو (الملؤا) ليبين عظمته وقوته.

٧) أما الملأ العادي من قوم فرعون فقد ذكره سبحانه وتعالى في سورة الأعراف. قال تعالى: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾. (الأعراف١٠٩).

رابعاً: الفرق بين رسم (الملأ) ورسم (الملؤا) في القرآن الكري[٢٢]

لم ينتبه مفسروا القرآن من السلف الصالح إلى الاختلاف في رسم الكلمة الواحدة في القرآن الكريم بأكثر من صورة، فلم يأت أحد منهم على ذكر هذا الاختلاف البيّن في رسم الكلمة الواحدة فاعتبروها ذات معنى واحد رغم اختلاف رسمها في آية عن رسمها في آية أخرى. ولأن القرآن الكريم كلام الله تعالى وقد تعهد سبحانه بحفظه (قراءة ورسماً) فلا بد إذاً أن في اختلاف رسم الكلمة الواحدة اختلافاً طفيفاً في المعنى، وإلا لما كان هناك داعٍ لاختلاف الرسم. وحين نتدبر مثل هذه الكلمات تدبّراً دقيقاً وعميقاً نستطيع أن نميّز هذا الفرق الدقيق في المعنى بين رسمي الكلمة الواحدة والذي لم ينتبه إليه أيّ من مفسري القرآن من سلفنا الصالح.

ومن هذه الكلمات كلمة (الملأ)، حيث رسمت بضعاً وعشرين مرة على هذه الصورة (الملأ)، بينما رسمت في أربعة مواضع على صورة (الملؤا)، فما الفرق بينهما في المعنى ؟

– وردت كلمة (الملأ) مرسومة بحرف الألف في كثير من الآيات القرآنية الكريمة مثل:

١– ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذا قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ (البقرة:١٤٦).

٢– ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ (الأعراف:٦٠).

٣– ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسلاً من ربه..﴾ (الأعراف: ٧٥).

٤– ﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ (يوسف: ٤٣).

٥– ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ (القصص: ٣٨).

٦– ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب﴾ (الصافات: ٨)[٢٣].

– أما المرات الأربع التي ورد فيها رسم الكلمة بالواو (الملؤا) ففي الآيات:

١– ﴿قالت يا أيها الملؤا إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ (النمل: ٢٩).

٢– ﴿قالت يا أيها الملؤا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ (النمل:

.(٣٢

٣- ﴿قال يا أيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ (النمل: ٣٨).

٤- ﴿فقال الملؤا الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ (المؤمنون: ٢٤)[٢٤].

- وحين نستعرض المرات الكثيرة التي ورد فيها رسم الكلمة بالألف (الملأ) نجد أن معناها ينصرف إلى علية القوم في المجتمع وهم شريحة عريضة من الأغنياء وأصحاب الشهرة والنفوذ، وهم الذين يشكلون الرأي العام في أي مجتمع، ففي المجتمعات القديمة كان (الملأ) يعبر عن طبقة الأغنياء وطبقة أصحاب السلطة المعينين عن طريق الملك، وطبقة هي في حاشية الملك سواء من أقاربه أم من مستشاريه، وهم جماعة يجتمعون على رأي، فيملئون العيون رواء ومنظراً، والنفوس بهاء وجلالاً [٢٥].

أما في المجتمعات الحديثة فنستطيع أن نضيف إلى ذلك شرائح الإعلاميين والفنانين ومشاهير الرياضة ورجال الأعمال، وغيرهم. وهؤلاء هم (الملأ) الذين يستطيعون أن يؤثروا تأثيراً كبيراً في الرأي العام لأي مجتمع حديث.

وبالعودة إلى الآيات التي ذكرت (الملأ) برسم حرف الألف نجدها تشير إلى هذه الأصناف من الناس ففي الآية: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليل منهم والله عليم بالظالمين﴾ (البقرة: ٢٤٦).

نلاحظ أن الذين طلبوا من النبي أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله هم الشريحة التي تسيطر على الرأي العام في المجتمع وهم أصحاب مصلحة مادية أيضاً لأنهم ذكروا أنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم فيريدون أن يستردوا الديار، ثم نلاحظ أنهم نكصوا على أعقابهم حين كتب عليهم القتال إلا قليل منهم.

* والآية: ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ (الأعراف: ٦٠).

- وردت في سياق مختصر قصة نوح مع قومه حيث وردت القصة في ٦ آيات فقط تتحدث عن إرسال الله تعالى نوحاً إلى قومه وردّ (الملأ) الذين هم أصحاب الرأي العام عليه برفض دعوته ثم عقاب الله تعالى لهم بالغرق.

* والآية: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم

أتعلمون أن صالحاً مرسلاً من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ (الأعراف: ٧٥).

– وردت أيضاً في سياق مختصر لقصة صالح وقومه ثمود في ٧ آيات، ونجد أن (الملأ) هم الذين استكبروا من القوم واستهزأوا بالمؤمنين المستضعفين وأعلنوا أنهم كافرون بما أرسل به صالح فأخذهم الله بالرجفة.

* وأما الآية التي تذكر رؤيا ملك مصر أيام يوسف عليه السلام ﴿... يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ (يوسف: ٤٣) فقد توجه فيها الملك إلى خطاب (الملأ) الذين هم شريحة اجتماعية مكونة من الكهنة والسحرة وخبراء عصرهم في تعبير الرؤى والأحلام

* وفي الآية الكريمة ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري..﴾ (القصص:٣٨)، يخاطب فرعون (الملأ) الذين هم علية القوم البارزين في شتى المجالات والذين يدعَوْن في العادة إلى الاجتماعات العامة التي يلقي فيها الحاكم خطاباً.

* وفي الآية الكريمة ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب﴾ (الصافات: ٨)، نجد أن (الملأ الأعلى) هم شريحة عريضة من الملائكة الكرام الذين يمتازون بعلمهم بما سيكون على الأرض من أحداث، وهم يتحدثون بها فيسمعها الجن الذين كانوا يتخذون من السماء مقاعد للسمع، ونجد أن هذه الشريحة من الملائكة كبيرة ومنتشرة في السماء لأن الجن كانوا يتنصتون عليها من مختلف أجواء الأرض.

– أما الآيات الأربع التي رسمت فيها كلمة (الملؤا) بالواو، فنجد أن (الملؤا) فيها هم خاصة الخاصة في المجتمع، فهم في المجتمعات القديمة مستشارو الملك المقربون وحاشيته من أقاربه، وفي المجتمعات الحديثة فهم رجال الرئيس من مستشارين ووزراء، وحين نستعرض هذه الآيات نجد فيها جميعاً هذا المعنى كما يلي:

١) ﴿قالت يا أيها الملؤا إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ (النمل: ٢٩)، فملكة سبأ تخبر خاصة مستشاريها بأنها ألقي إليها كتاب كريم، ولم تخبر صناع الرأي العام في مجتمعها، بل أخبرت عدداً محدوداً جداً (الملؤا) من مستشاريها ووزرائها فقط. ﴿قالت يا أيها الملؤا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ (النمل: ٣٢) وهي هنا تستشير خاصتها في الخطوة التي تتخذها إزاء رسالة سليمان إليها، ومن البدهي أنها لا تخاطب الرأي العام هنا بل تخاطب خاصة الخاصة. ﴿قال يا أيها

الملؤا أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ (النمل: ٣٨) وفي هذه الآية نجد سليمان عليه السلام يخاطب (الملؤا) الذين هم خاصة مستشاريه من الجن والإنس، فيسألهم أيكم يأتيني بعرشها، ومن البدهي أنه لا يخاطب شريحة عريضة في المجتمع بل شريحة خاصة جداً وهي مستشاروه.

٢) ولكي نستيقن أن ما ذهبنا إليه من تفسير معنى (الملأ) بالألف هم الشريحة العريضة من المجتمع التي تشكل الرأي العام فيه، ومعنى (الملؤا) بالواو من أنهم خاصة الخاصة في المجتمع، فسوف نستعرض آيتين كريمتين خاصتين بقصة نوح عليه السلام حيث ورد في إحداهما ذكر (الملأ) بالألف، وورد في الأخرى ذكر (الملؤا) بالواو، وسنحاول شرح الفرق الدقيق في المعنى بين اللفظين.

– ففي الآية ٢٧ من سورة هود نقرأ من قصة نوح: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾.

– وفي الآيتين ٢٤ و ٢٥ من سورة المؤمنون نقرأ من قصة نوح وقومه: ﴿فقال الملؤا الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾.

– فقصة نوح في سورة هود استغرقت ٢٤ آية وكان فيها كثير من التفاصيل، والآية التي ذكر فيها (الملأ) بالألف نقرأ فيها كلاماً موجهاً من (الملأ) إلى نوح في صيغة المخاطب ﴿ما نراك إلا بشراً﴾، ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾، ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾، ﴿بل نظنكم كاذبين﴾. وهذا يعني أن نوحاً عليه السلام كان يدعو (الملأ) كل يوم فيسمع منهم مثل هذا الكلام، ومن البدهي أن (الملأ) الذين كان يدعوهم يوماً بعد يوم هم أناس من علية القوم ولكنهم (ملأ) مختلف في كل يوم أي شريحة أخرى من شرائح علية القوم، فبعضهم كان يرد عليه بالقول (ما نراك إلا بشراً مثلنا) وبعضهم يرد عليه بالقول ﴿ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾، وبعضهم كان يرد عليه بالقول ﴿وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾.

– أما قصة نوح في سورة المؤمنون فقد وردت مختصرة جداً عنها في سورة هود حيث وردت في المؤمنون في ٧ آيات فقط فلم ترد فيها تفاصيل كثيرة، وقد ورد فيها ذكر (الملؤا) بالواو ليعبر عن قوم محدودي العدد هم خاصة الخاصة في المجتمع،

حيث اجتمعوا معاً وتشاوروا في شأن دعوة نوح دون أن يكون نوح موجوداً معهم، حيث نجدهم يتكلمون عنه في صيغة الغائب ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾، ﴿يريد أن يتفضل عليكم﴾، ﴿إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾. ثم لما أصرت هذه الخاصة من الناس (الملؤا) على الكفر بدعوته دعا الله تعالى قائلاً في الآية ٢٦ ﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ فأوحى الله تعالى إليه في الآية التالية ٢٧ ﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا..﴾. وعليه فإن (الملأ) الذين كفروا بدعوة نوح هم عامة علية القوم، بينما (الملؤا) الآخرين هم من خاصة علية القوم.

المطلب الثاني: مفهوم الملأ من خلال القصص القرآني

المفهوم الأول للملأ: هم أشراف الناس ووجوههم كما في الأمم الهالكة، كملأ قوم نوح وهود وصالح وشعيب، وكذلك يدخل في هذا التعريف ملأ قريش حيث لم يكن للعرب في جزيرة العرب دولة، ولا سلطان، وإنما أغلبهم كانوا تبعاً للدولتين العظيمتين، وهما الفرس والروم في ذلك الوقت، أما الأمم الهالكة فقد وجدوا في حقبة زمنية ليس فيها ملك أو سلطان يحكم بلادهم، فكانت الحياة السياسية في ذلك الوقت في يد أشراف القوم ووجوههم؛ لذلك لم يذكر القرآن الكريم الملأ في قوم لوط، وذلك لتمكن الفاحشة من جميعهم، فليس فيهم شريف، بل كلهم على جانب واحد من الوضاعة، وبذلك يخرج مفهوم البِطانة من هنا؛ لأنه لا مكان له، وقد تمثَّل دور الملأ في الأقوام الهالكة بالتكذيب والاستهزاء والضحك والسخرية من الرسل، وتوجيه أنواع الاتهامات إليهم من جنون وسحر وكذب وإفساد في الأرض، كما ذكرت الآيات القرآنية.

أما المفهوم الثاني للملأ: فتمثَّل في عهد الدولة والسلطان كسليمان وبلقيس، وملأ مصر في عهد يوسف، وملأ فرعون مصر في عهد موسى، وهؤلاء الملأ كانوا ممن يحيطون بالسلطان من أشراف القوم والوزراء، وقادة الجند، وحتى الكهنة في الممالك الكافرة، وهؤلاء اختلف أمرهم عن سابقيهم، فملأ بلقيس كان مجرد شورى، لا يتخذ أي قرار منفرد، وإنما مرجع الأمر في النهاية إلى الملكة، وتنحصر مهمتهم في التنفيذ، ولعل ذلك يرجع إلى ما عُرف عن بلقيس من الحكمة، والحنكة في سياسة الملك، بحيث لم يبلغ أحد في قومها ما بلغته في ذلك ليكون مشيراً عليها، وعلى الرغم من ذلك كانت تسعى لتشاركهم المشورة، وذلك لسعة حكمتها في سياسة الملك، ويظهر هذا جلياً في قصتها مع سليمان كما جاء في القرآن الكريم حينما دعاها للإسلام والدخول تحت طاعته، فجمعت الملأ- وكان يتكون من أشراف البلد وقادة

الجند- وعرضت عليهم الأمر، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (النمل:٣٢)، فما كان من الملأ إلا أنه فوض الأمر إليها؛ لثقته برجاحة عقلها، وحنكتها السياسية، قال تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾(النمل: ٣٣)، أما الملأ في عهد سليمان- عليه السلام- فلم يكن كغيره من الأمللاء، فسليمان عليه السلام نبي وقد سخر الله له الإنس والجن، وبذلك يكون ملؤه خادماً مطيعاً له، ولا دخل في المشورة، وإنما عمله التنفيذ فقط، وهذا يظهر من خلال قصته مع بلقيس، فلم يعرض أمرها على ملئه للمشورة، وإنما طلب منهم التنفيذ فقط، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل:٣٨)، وليس في سيرة سليمان عليه السلام ما يدل على استشارة الملأ في أي أمر كما كانت تفعل بلقيس.

وكذلك كان الملأ في زمن يوسف عليه السلام أهل مشورة، ولعل ذلك لأن حكام مصر في ذلك الوقت كانوا من الهكسوس، ولم يكونوا من الفراعنة أهل البلاد، كما دلت الآيات في قصة يوسق من مشاورة ملك مصر لملأه في قضية الرؤيا التي رآها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف:٤٣).

أما في عهد الفراعنة، وبخاصة في عهد فرعون موسى فكان الأمر يختلف كثيراً، فملأ فرعون كانوا أهل سطوة وشورى وتنفيذ في الحكم، فقد دلت الآيات القرآنية أن الملأ في عهد الفراعنة، وبخاصة فرعون موسى كان يتمثل بوجوه القوم وسادتهم من وزراء وقادة الجند وأصحاب مال وسلطان، وحتى من الكهان كانوا يشاركون عملياً في تصريف شؤون الحكم والدولة، ويحافظون على النظام حتى أن النص القرآني في أول إشارة منه إلى طبيعة مشاركتهم لم يذكر معهم فرعون، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (القصص:٢٠)، فكأن ما قاموا به من مؤامرة على موسى عليه السلام يقع ضمن صلاحياتهم، أو أنهم بادروا من تلقاء أنفسهم لحماية الحكومة للتدليل على مدى إخلاصهم لفرعون، وكان ذلك عندما وكز موسىعليه السلام القبطي دفاعاً عن مظلوم من بني قومه فقضى عليه([٢٦])، بالإضافة إلى الوزير الأول في ذلك وهو هامان، فقد خصه الله بالذكر لتنفذه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ، إلى

فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾(غافر:٢٣-٢٥)، وقوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾(العنكبوت: ٣٩)، وقوله تعالى: ﴿فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص:٨)، دلالة على أنَّ الظالم الطاغية لا يصل إلى ظلم الناس والتسلط عليهم إلا بمعونة ومظاهرة وزير يعينه على الظلم، ويزين له الباطل، كما فعل هامان وزير فرعون، "قال وهب بن منبه: قال موسى عليه السلام لفرعون: آمن ولك الجنة، ولك ملكك، قال: لا حتى أشاور هامان، فشاوره في ذلك فقال: بينما أنت إله تعبد إذ صرت تعبد! فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان، وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن أبس مسلم لا يألوه خبالاً"([٢٧])، وهذا حال الطغاة في كل زمان ومكان، فلو وجد الظالم من ينصحه، ويرده إلى الصواب لما طغى وتجبر.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدقٍ، وإن نسى ذَكَرَهُ، وإن لم ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يُذَكِّره، وإن ذكر لم يعنه"([٢٨])، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ (طه:٢٩)، "فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران، ثم دلت هذه الآية على أن موضع الوزير أن يشد قواعد المملكة، وأن يفضي إليه السلطان بعجزه ونحوه إذا استكملت فيه الخصال المحمودة، ثم قال تعالى: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (طه: ٣٣، ٣٤) دلت هذه الكلمة على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة"([٢٩]).

وبعد هذا الاستعراض لمفهومي البطانة والملأ نخلص إلى أنهما يتفقان في أنه لا غنى لنبي، ولا ملك، ولا حاكم، عمن يكون من خاصته المقربة، وكاتماً لأسراره كونهما أهل مشورة، ويختلفان في:

١- أنَّ مصطلح البطانة قد يطلق على شخص أو أشخاص عدة، أما الملأ فلا يطلق إلا على الجماعة.

٢- أنَّه لا يطلق لفظ البطانة في عهد ما قبل الملك والسلطان على الملأ؛ لأن الملأ هم أهل السلطة، أما في عهد الملك والسلطان فالملأ قد يكون أهل مشورة فقط، أو أهل سلطة ومشورة معاً، أما البطانة فهم أهل مشورة فقط.

٣- أن البطانة قد تكون من الملأ أنفسهم، وقد تكون من دونه، وقد تكون من القوم أنفسهم، أو من غيرهم، أما الملأ فلا بد وأن يكونوا من القوم أنفسهم.

المبحث الثاني
صفات الملأ ودورهم في توجه المجتمع

بينا سابقاً أنَّ الملأ في عصر الدولة والسلطان هم أشراف المجتمع وسادته من علماء ومستشارين، ووزراء، وقادة الجيش، ورجال الدين، وغير ذلك من علية القوم، أما في عهود ما قبل الدولة والسلطان فهم أشراف القوم وسادتهم وله اليد الطولى في توجه المجتمع العقدي والأخلاقي؛ لذلك كان لكل من الفريقين سمات وصفات وأخلاق تميز بها عن غيره وإن اشتركوا في سمات وصفات كان لها أثرٌ بعيدٌ في توجه المجتمع العقدي والأخلاقي، وبينا أيضاً أن الأصل في سادة القوم وأشرافهم أن يتصفوا بحسن الخلق، فهم صفوة القوم، ولكن من خلال استقراء صفات الملأ في القرآن تبين أن جميع الكفار من الملأ قد اشتركوا في صفات عدة، وأخلاق ذكرها القرآن الكريم في معرض نعيه عليهم أهمها:

المطلب الأول: صفات الملأ في القرآن الكريم

أولاً: العلو الاستكبار:

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الأعراف: ٨٨)، وقال أيضاً: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:٩٠)، وقال الله تعالى واصفاً ملأ فرعون: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ، إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ (المؤمنون:٤٥ و٤٦)، فقد استكبروا على الخلق والخالق، ويتجلى استكبارهم على الخالق بعدم الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام كما في قولهم: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٢) أما استكبارهم على الخلق فجاء بقولهم: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (المؤمنون:٤٧)، "فقد استذل فرعون وملؤه بني إسرائيل، وذبحوا أبناءهم، واستحيوا نساءهم، وعبَّدوهم، فاستكبارهم على الخلق كان بمباركة فرعون، فقد كان فرعون في عصره طاغية الدنيا، وكان ملؤه حكام مصر يحكمون بطغيانه، ويسولون له كل ما يفعل، ويسوغون له ما به يعلو ويسرف، وباسمه عتوا عن أمر العقل والمنطق والحق، بعث الله تعالى موسى وهارون -عليهما السلام- إلى هؤلاء وكلٌّ يعتز بعزة فرعون، وكانوا يستفتحون بعزته، فكانوا من منطق الوقائع، لا من

منطق الحق والعقل مستكبرين، فبسبب هذه الظغواء استكبروا وكانوا مرتفعين عن الناس، لا في ذات أنفسهم، بل بحكم واقع الحكم"([٣٠]).

وقال تعالى واصفاً الملأ من قوم صالح: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف:٧٥،٧٦)، وتجلى استكبارهم أيضاً بقولهم لصالح عليه السلام: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف:٧٧).

ثانياً: الإجرام والفسوق:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (يونس:٧٥)، وجملة ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ في موضع الحال؛ أي: وقد كان الإجرام دأبهم وخلقهم فكان استكبارهم على موسى عليه السلام من جملة إجرامهم([٣١])، والوصف بالإجرام (مجرمين) يدل على استمرارهم فيه، فلم تكن دعوة الحق فيهم مستجابة([٣٢])، أما وصفهم بالقسوة، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (القصص:٣٢).

ثالثاً: ترف الملأ ودورهم في الإضلال:

لقد أنعم الله على خلقه بنعم لا تعد ولا تحصى فمنهم من شكرها، ومنهم من كفرها، وقد ذكر لنا القرآن الكريم في معرض حديثه عن الأمم السالفة أنها لم تحفظ هذه النعم ولم تسعَ لشكرها وخصَّ من طبقات هذه الأمم سادة القوم وأشرافهم؛ أي: فقد كفروا نعم الله عليهم وأعظمها نعمة الإسلام لله رب العالمين، بل إنهم استغلوا هذه النعم بالدعوة إلى الضلالة ومحاربة دين الله، ويظهر هذا جلياً في موقف ملأ فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس:٨٨)، "فقد كانت النعمة مغرية لهم بالطغيان فقد كان للفراعنة من سعة الرزق ورفاهية العيش ما سار ذكره في الآفاق، وظهرت مثل منه في أهرامهم ونواويسهم، فألهتهم الزينة عن اتباع المواعظ فضلوا، والأموال استخدموها لتسخير الرعية لطاعتهم، وسعوا في تضليل الناس وصدهم عن دين الله، فالزينة سبب إضلالهم"([٣٣])، أما ملأ ثمود فقد حكى لنا القرآن الكريم عنهم أنَّ الترف الذي كانوا يعيشونه كان سبباً في ضلالهم وإضلالهم لغيرهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ(٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ(٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ(٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ(٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ(٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٣٣-٣٨)، "فقد كانت النعمة سبباً في إضلالهم، فالترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر فلا تتأثر ولا تستجيب للحق، فثروتهم ونعمتهم أغرتهم بالكبر، والصلف، إذا ألفوا أن يكونوا سادةً لا تبعاً، فَبَطِرُوا النعمة وعتوا على ربهم، وكفروا، وحاولوا صد قومهم عن الإيمان برسولهم بدعوى بشريته، لتوهمهم أنَّ البشرية تنافي أن يكونَ صاحبها رسولاً من الله مع الأخذ في تهوين أمره، وتهوينه؛ لينفرَ من لان لدعوة صالح ﷺ"([٣٤])، ومن هنا يحارب الإسلام الترف، ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة لأنهم كالعفن يفسد ما حوله([٣٥]).

رابعاً: الصد عن دين الله:

يسلك الملأ في الصد عن دين الله مسلكين: الأول: التحريض على دعاة الحق، أما المسلك الثاني: فيكون بالمحاربة المباشرة للدعاة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:١٠٣)، "فالظلم: الاعتداء على حق الغير، فيجوز أن يكون فظلموا هنا على أصل وضعه، وتكون الباء للسببية، وحذف مفعول (ظلموا) لقصد العموم، والمعنى: فظلموا كل من له حق في الانتفاع بالآيات، أي منعوا الناس من التصديق بها، وآذوا الذين آمنوا بموسى ﷺ لما رأوا آياته، والكفر أعظم الفساد؛ لأنه فساد القلب ينشأ عنه فساد الأعمال"([٣٦]). وهذا النهج نهجه ملأ قريش مع الذين آمنوا بالرسول محمد ﷺ وآذوا المؤمنين لعلهم يرجعون عن الإيمان، لكنهم أخفقوا وما استطاعوا.

المسلك الأول: التحريض على دعاة الحق:

عندما يفلس أعوان الشر في القضاء على الخير والفضيلة يبدأون بالتحريض على دعاة الحق، وهذا ما قام به الملأ في الأمم الهالكة، وما يقوم به شر الملأ في كل زمان ومكان، فهم لا يخطئون فهم مدلول الحقيقة التي يعلنها دعاة الحق، من سلب الحكم والسيطرة من البشر وردها إلى خالق البشر؛ لذلك يحولون الأنظار عن دلالتها إلى كيل الاتهامات المنفردة، والتحريض على الدعاة، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ

مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ(١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الأعراف:١٠٩-١١٠)، وعندما يرى المحرضون تراخي الحاكم في القضاء على دعوة الحق، أو المعارضين للجبروت والتسلط يعمدون إلى ميد من التحريض؛ لإيقاظ ذهنه، وإسعار حميته، فيأتون بكلام يثير غضب الحاكم؛ ليزداد بطشاً وتسلطاً؛ ليحفظوا لأنفسهم ما وصلوا إليه من قوة وسلطان ولو على حساب المقهورين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف:١٢٧).

المسلك الثاني: المحاربة المباشرة:

مَن اعتاد أن يكون سيداً مترفاً مسخراً غيره لخدمته أن يتنازل عن موقعه، وإن تيقن له الحق؛ لذلك لابد أن يعمد على محاربة دعاة الحق، ففي نظره أن من يدعو إلى الحق لابد أن يسلبه الجاه والسلطان؛ لذلك لما دعا نوح للإيمان وترك عبادة الأوثان تصدى له الملأ من قومه، واتهموه بالضلال، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(الأعراف:٦٠)، وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال، بل يبلغ التبجح الوقح بملأ قوم عاد أن يتهموا نبيهم بالسفاهة والكذب، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الأعراف:٦٦)، وقد يستخدمون أشد العقوبات إيلاماً للنفس وهي الإخراج من الأوطان، فقد جاءت آيات في كتاب الله –عز وجل– تصف تهديد الملأ لرسلهم بالإخراج، "وكان إخراج المغضوب عليه من ديار قبيلته عقوبة متبعة في العرب إذا أجمعت القبيلة على ذلك بتحريض من الملأ، ويسمى هذا الإخراج عند العرب بالخلع، والمخرج يُسمى خليعاً"([٣٧])، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الأعراف:٨٨)، وقوله تعالى عن ملأ قريش: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (التوبة:١٣)، "فملأ مكة من الكفار هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة، ولكنه صرح في مواضع أُخَر بأنهم أخرجوه بالفعل، كقوله تعالى: ﴿"يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾(الممتحنة:١)، وقوله تعالى:﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ (محمد:١٣)، وقوله تعالى:﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٤٠)، وذكر في مواضع أُخر محاولتهم لإخراجه قبل أن يخرجوه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(الأنفال:٣٠)"([٣٨])، وليس ببعيد عنا قضية الإخراج للدعاة والمصلحين عن طريق البعثات الخارجية، فالملأ في دول الظلم والجور حينما يرون مظاهر العودة إلى الله دين الله بدأت تنتشر على يد بعض الدعاة والمصلحين، لا يجدون مناصاً من التخلص منهم بطرق مختلفة، ومن هذه الطرق القديمة الحديثة، الإخراج، ويكون ذلك بأسلوب حديث، وهو بأن يرسلوه للخارج لبعثة دراسية، أو لتمثيل بلده في مؤتمر، أو دورة، أو تمثيل دبلوماسي، أو لأي غرض من الأغراض، ويتفقون هناك مع بعض مَن يقوم بإغرائه بشتى المغريات، هناك يكون الجو بذاته فتنة له، ويبعده عن الجادة التي تربى عليها، أو يرسلون له مَن يخلصهم منه هناك بحادث ضد مجهول، بعيداً عن غضبة جمهوره في بلده([٣٩])، وإن كان الأمر في بلد محتل كفلسطين يكون الإخراج عن طريق الإبعاد المؤقت لمدة محدودة، أو الإبعاد الدائم.

خامساً: التعالي على شعوبهم:

الاستكبار عن الحق لابد أن يتبعه التعالي على الناس، فملأ نوح ردوا دعوته بدعوى اتباع الطبقة السفلى من القوم لها، وهذا يمس مصداقية الدعوة؛ لأنه في نظرهم أن الدعوة الحقة يجب أن تكون الاستجابة لها من علية القوم، أما الضعاف فلا حق لهم في الخير، فهو إذن ازدراء لضاعف الناس، فلا يحق لهم الحياة الكريمة، ولا حتى في الهدى في نظر الملأ، قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود:٢٧).

يقول ابن كثير: "هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم، وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أم الأرذال، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأرذال، ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالباً أنَّ من يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبرياء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٣)، ولما سأل

هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل"([٤٠]).

أما ملأ بني إسرائيل فلم يختلفوا عن غيرهم من الملأ السابقين في ازدراء الناس، والتعالي عليهم، فحينما تفرق بنو إسرائيل، وتسلط عليهم أعداؤهم بعد موسى، رأى الملأ منهم أن يعيدوا تجمعهم مرة أُخرى، ويقاوموا عدوهم؛ لذلك أتوا نبي لهم، وطلبوا منه أن يُعَين لهم ملكاً؛ ليجمع تفرقهم، ويقاوم بهم عدوهم، وقال لهم نبيهم بأنَّ الله قد بعث لهم طالوت ملكاً، فكان ردهم على ذلك قولهم: كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب، ونحن أحق بالملك منه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٤٧)، فالتعالي على الناس سمة الملأ في كل زمان ومكان إلا من رحم ربي، وقليل هم.

المطلب الثاني: دور الملأ في التأثير على المجتمع

أولاً: دور الملأ في التأثير العقدي للمجتمع:

بينا سابقاً مدى قدرة الملأ في التأثير في المجتمع من باب أنهم سادة المجتمع وأشرافه، ولهم مكانة السمع والطاعة في مجتمعاتهم؛ لذلك كان لهم الأثر الواضح في توجه المجتمع العقدي، فملأ نوح حينما حارب دعوة نوح عليه السلام خوفاً منهم أن تسلبهم الدعوة ما كانوا عليه من سلطان على أقوامهم، عمدوا إلى تنفير قومهم من الدعوة، "فقد أوهموهم أنَّ المساواة في البشرية مانعة من الوساطة بين الله وبين خلقه، وهذا من الأوهام التي أضلت أمماً كثيرة، وعمدوا إلى تصغير أمره وتحقيره لدى عامتهم؛ كيلا يتقبلوا قوله، وذلك بالإشارة إليه دون التصريح باسمه"([٤١])، قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون:٢٤)، كما حدثنا القرآن الكريم عن ملأ شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:٩٠)، "فهذه المقالة قالها الملأ لأتباعهم وسائر الناس الذين يقلدونه"([٤٢])، بعدما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين في الإيمان، فحافوا أن يستتبوا قومهم تثبيطاً لهم عن الإيمان به وتنفيراً لهم عنه على طريقة التوكيد

القسمي والله، "لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا"، ودخلتم في دينه وتركتم دين آبائكم، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾، أي: في الدين لاشتراكهم الضلالة بهداكم، أو في الدنيا لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف([٤٣])، فإن أسقط في أيديهم استخدموا أسلوب تشكيك المؤمنين في عقيدتهم، قال تعالى حكاية عن ملأ ثمود: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٧٥)، "فقد عدل الملأ الذين استكبروا عن مجادلة صالح عليه السلام إلى اختبار تصلب الذين آمنوا به في إيمانهم، ومحاولة إلقاء الشك في نفوسهم، والاستفهام في (أَتَعْلَمُون) للتشكيك والإنكار، أي: ما نظنكم آمنتم بصالح عليه السلام عن علم بصدقه، ولكنكم اتبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود:٢٧)، وفي ذلك شوب من الاستهزاء"([٤٤]).

يقول سيد قطب: "والملأ هم آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان في الأرض وترده إلى إله واحد هو رب العالمين! ولابد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد، وهكذا نرى الملأ المستكبرين من قوم صالح عليه السلام يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد"([٤٥]).

ولقد كاد قيصر عظيم الروم يسلم لولا ملؤه، إذ لما أرسل إليه الرسول ﷺ دحية الكلبي يدعوه بدعاية الإسلام، وقر الحق في قلبه، فجمع عظماء الروم؛ ليعرضَ عليهم الأمر، إلا أنهم أظهروا كراهيتهم للإسلام، مما جعله يرتد عن الأمر، قال الأزهري: فَدَعَا هِرِقْلُ عُظَمَاءَ الرُّومِ فَجَمَعَهُمْ في دَارٍ لَهُ، فقال: يا مَعْشَرَ الرُّومِ: هَل لَكُمْ في الفَلَاحِ والرُّشَدِ آخِرَ الأَبَدِ، وأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُم، قال: فَحاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأَبْوَابِ فَوَجَدُهَا قَد غُلِّقَتْ، فَقَال عَلَيَّ بِهِم، فَقَالَ: إِنِّي إِنَّما اخْتَبَرْتُ شِدَّتِكُم عَلَى دِيْنِكُمْ الذِّي أَحْبَبْتُ فَسَجَدوا لَهُ ورَضُوا عَنْهُ[٤٦]. فلولا الملأ من الإسلام لتم الأمر لهرقل بإسلامه؛ لأنه كان على يقين بنبوة محمد ﷺ فكان هذا الموقف منهم صاداً لهرقل، وبالتالي صاداً للرومان بأكملهم عن الإسلام؛ لأن الشعوب تبع لملوكها دلت عليه الحقائق التاريخية.

ثانياً: دور الملأ في التأثير الأخلاقي للمجتمع:

معروفٌ أنَّ عامة الشعوب تتأثر بصفوتها فكرياً وخُلُقياً، وللملأ تأثير مباشر

في مسلك المجتمعات الأخلاقي، ومنبع الأخلاق هي العقائد، فإذا فسدت العقيدة فسدت الأخلاق، وبنظرة إلى الأمم الهالكة نجد أنَّ عقيدتها القائمة على الشرك بالله كانت مصدر الانحراف الخلقي الذي ساد في تلك المجتمعات، فقوم عاد اتصفوا بالتعاظم واحتقار الناس، فقد اغتروا بقوة أجسامهم، وعزة أمتهم، وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد، واستخفوا عداهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (فصلت:١٥)، واشتهر قوم ثمود بالفساد في الأرض، بدليل قول صالح عليه السلام لهم عند وعظه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:٧٤)، وقوم شعيب عليه السلام اتصفوا بالتطفيف في المكاييل والموازين، وقطع الطريق على المسافرين، وسلبهم والاعتداء عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:٨٥-٨٦)، فهولاء ليس عندهم وازع ديني يردعهم عن ذلك، فلا مراقبة لله تردعهم، ولا قانون يأخذ على أيديهم؛ لأن صفوة القوم منهم هم القائمون على هذه المفاسد؛ ولأن الشرك بالله سوغ له هذه الأخلاق والقيم المنحرفة، فالإيمان القائم على توحيد الله هو مناط القيم الخلقية، وهو أيضاً مصدر الإلزام الخلقي؛ لأنه المسيطر على كل غرائز الإنسان وشهواته، والمتحكم في أحاسيسه ودوافعه، "فالإلزام هو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي، والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته، وفناء ماهيتها ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسئولية، وإذا عدمت المسئولية فلا يمكن أن تعود العدالة، وحينئذٍ تتفشى الفوضى، ويفسد النظام، وتعم الهمجية، لا في مجال الواقع فحسب، بل في مجال القانون أيضاً، وطبقاً لما يسمى بالمبدأ الأخلاقي"([٤٧]).

يقول ابن تيمية ما خلاصته: "الإيمان الذي في القلب لابد فيه من شيئين: الأول: تصديق بالقلب، وإقراره ومعرفته، وهذا هو التوحيد، والآخر: عمل القلب، وهو التوكل، والتوكل: لابد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولابد فيه من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما

يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله، وجعلها من الإيمان، وبذلك تكون الأخلاق الكريمة داخلة فيه أيضاً، وأما البدن فلا يمكن أن يتخلى عن مراد القلب؛ لأنه إذا كان في القلب معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"([٤٨])، وقال أبو هريرة ﷺ: "القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت الجنود"([٤٩])، فما دامت العقيدة قد انحرفت فلابد أن تموت، كما أنَّ الأخلاق ليست شيئاً منفصلاً عن الواقع، فالفساد في الأخلاق معناه فساد في واقع الحياة"([٥٠]).

المبحث الثالث
مصير الملأ ومنهج القرآن في إصلاح الفساد
المطلب الأول: مصير الملأ ومسلكياته في القرآن الكريم

أولاً: مصير الملأ.

إن الآيات القرآنية لم ترد فقد لتعدد خصائصه والتعرف عليهم وعلى ممارساتهم، بل جاءت تذكير مصيرهم المحتوم بالخسران والهلاك، أو تبشر المستضعفين المغلوبين على أمرهم بالفوز والصلاح والتمكين. ثم جاءت لتنبه إلى حقيقة كبرى وهي ما يتعلق بقبول الملأ لمنهج الله الذي يخشون منه على مصالحهم ومكتسباتهم مقدما الضمان لهذه المصالح من:

١- بقائهم في السلطة واستمرار نفوذهم في ظل منهج الله القويم.

٢- استمرار النمو في مواردهم الذي يجدونه في الرخاء العام الذي يعمر المجتمع في ظل قبول الحق والعدل والهداية والصلاح.

٣- المكافئة التي سيحصلون عليها من رب العالمين، حيث سيفتح عليهم بركات من السماء والأرض.

ثانياً: اطراد مسلكية الملأ:

غير أن الملأ لا يقنعهم ما يعدهم به رب العالمين، ويفضلون العاجل على الآجل، ولا يثقون إلا في أنفسهم وما تهديه إليه عقولهم فكان التكذيب أهم ما يواجهون به الرسل والدعاة وكان التلويح بالعقاب من أهم وسائلهم لصد الناس عن اتباع الحق ونصرته، وهذا سلوك مطرد لا نجد في القرآن الكريم مثلاً واحداً يفارقه أو يختلف عنه، ويتضح ذلك من نماذج الملأ.

فهذا مسلك مطرد لا استثناء له، وإن وجد بعض الملأ يؤمن أو يثوب إلى رشده فلا يعد ذلك استثناء، إذ غالباً ما يندرج المؤمنون المستضعفون، وأما الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى الذين ثابوا إلى رشدهم فجاؤوا إلى نبي لهم ليعين زعيماً وقائداً لهم بعد فشلهم في مواجهة عدوهم فسرعان ما نكص أكثرهم على الأعقاب عندما اختار النبي لهم قائداً من عامة الشعب، وإليكم قصتهم كما ورد في كتاب الله ﴿الم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى... والله واسع عليم﴾(البقرة: ١٤٦-٢٤٧).

فقد تخلوا عن عرضهم بمجرد أن علموا أن تكاليف القتال من المال والأبناء ستقع على كاهلهم، كما اعترض الباقون على تعيين طالوت، لأنه ليس من طبقة الملأ، ولكنه من عامة الشعب الذين لا يملكون الثروة.

المطلب الثاني: منهج القرآن الكريم في إصلاح الفساد

وهكذا فإن دعوتنا لا تعول على الملأ ونحن بدورنا في فلسطين لا نعول كثيراً على التيارات الفكرية الأخرى أن تتبنى منهج الإسلام (منهج الله) لنكون جنودها، ومع ذلك فلا بأس من طرح الأمر عليهم رجاء أن يهتدوا، وإن كنا نشك في ذلك، ونحن إنما نفعل ذلك من باب التذكير واقتداء بمحمد ﷺ حين دعا زعامات قريش ووجه الرسل إلى قيصر وكسرى وغيرها من الملوك.

والناظر في آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن الملأ يرى أنَّ القرآن الكريم قد سلك مسلكاً معيناً في الإصلاح، أولاً: بإرساله الرسل للعامة والخاصة على السواء، ودعوتهم إلى ترك عبادة الأوثان، وتوجيههم إلى مبادئ الإسلام، ومكارم الأخلاق، ثانياً: فإن لم تتم الاستجابة تكون العقوبة من الله للمفسدين.

أولاً: الإصلاح بإرسال الرسل:

لقد أرسل الأنبياء –عليهم السلام– في إنقاذ الأمم من الفساد، مسلك الابتداء أولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والإذعان له، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته، ثم غرسوا فيه حسن الخلق بالتربية والتعليم لسواه، وذلك بتقوية حسن الإيمان المفطور عليه ودان كل إنسان، قال تعالى: ﴿ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥)([٥١])، فحينما بعث الله شعيباً عليه السلام إلى مدين، دعاهم إلى توحيد الله، ثم دعاهم إلى ترك المفاسد الأخلاقية التي اتصفوا بها، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ

شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:٨٥-٨٦)، وكان قد أمرهم بالتوحيد بادئ ذي بدء؛ لما فيه من صلاح القلب، ثم شرع يأمرهم بالشرائع من الأعمال بعد الإيمان، كما دل عليه قوله الآتي: "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"، فتلك دعوة لمن آمن من قومه بأن يكملوا إيمانهم بالتزام الشرائع الفرعية، وإبلاغ لمن لم يؤمن بما يلزمهم بعد الإيمان بالله وحده، وفي دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى الأعمال الفرعية بعد أن استقرت الدعوة إلى التوحيد، ما يؤذن بأن البشر في ذلك العصر قد تطورت نفوسهم تطوراً هيأها لقبول الشرائع الفرعية، فإن دعوة شعيب عليه السلام كانت أوسع من دعوة الرسل من قبله، هود وصالح -عليهما السلام- إذ كان فيها تشريع أحكام فرعية، وقد كان عصر شعيب عليه السلام قد أظل عصر موسى عليه السلام الذي جاء بشريعة عظيمة، ماسة نواحي الحياة كلها([٥٢]). وحينما أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، دعاهم إلى إطلاق سراح بني إسرائيل من العبودية؛ لأن عبودية بني إسرائيل كانت نتيجة مباشرة لفساد عقيدة فرعون وملئه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٤)([٥٣])، فهذا الإصلاح يشمل إصلاح ملأ كل قوم، كما يشمل إصلاح عامة القوم؛ لأنه بصلاح الملأ يصلح باقي أفراد المجتمع؛ لأنهم صفوته، والمتنفذون فيه، ولهم الأمر والطاعة، وتوجيه المجتمع كما سبق بيانه، "فأقوى الأسباب في صلاح الرعية إصلاح الملأ، وذوي الأحلام الراجحة والمروآت القائمة، والأذيال الطاهرة، فمتى كان رأس العامة سراتهم فهو الطريق إلى حفظ أديانهم ومروآتهم، وتماسكهم عن الانهماك في المحظورات وملابسة المحرمات"[٥٤]، كما يشمل إصلاح كل فرد من أفراد الرعية؛ لأنه بصلاحهم تتحول أمور الملأ وتوجيهاتهم، أو بعبارة أصح لا يكون لهم السمع والطاعة، والخضوع من باقي أفراد المجتمع، وبذلك يتم التحول في أحوال الملأ، بالسلم أو بالقوة، بحسب مقتضيات المرحلة الزمانية والمكانية؛ لذلك عمد القرآن الكريم في توجيه الإرشاد إلى كل فرد دون تمييز.

يقول أبو الأعلى المودودي:" وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية لا يخفى عليه أن المسألة-التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها- إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية، ومن بيده زمام أمرها... ومن الظاهر البين أنَّ

الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات، وصوغها في قوالب يحبونها، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية، وإنشاء النظام الجماعي، وتحديد القيم الخلقية، فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه، فلابد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق الخير والرشد والصلاح، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم... وأما إذا كانت هذه السلطة– سلطة الزعامة والقيادة والإمامة– بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله، واتبعوا الشهوات، وانغمسوا في الفجور والطغيان، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار، والنظريات، والعلوم، والآداب، والسياسة، والمدنية، والثقافة، والعمران، والأخلاق، والمعاملات، والعدالة، والقانون برمتها وتنمو السيئات ويستفحل أمرها.."(٥٥).

ثانياً: بعقوبة المفسدين:

لقد بدأ القرآن الكريم بإصلاح الفساد العقدي والأخلاقي عن طريق دعوة الرسل للعامة، والخاصة بالحكمة والموعظة الحسنة، إلا أنَّ الملأ جميعاً قد قابلوا هذه الدعوة بالتكذيب والمحاربة، وصد العامة عن الإيمان بها؛ ليحافظوا على مكتسباتهم التي حصلوا عليها؛ لعلمهم أنَّ إيمان بعض الخاصة أو العامة يحرمهم من هذه المكتسبات؛ لذلك كان لابد من تطهير الأرض من هذا الفساد الذي لا يمكن إصلاحه بسبب تعنت الملأ؛ لذلك كانت العقوبات الإلهية التي قضت على الفساد والمفسدين على مر العصور الغابر، قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (الشعراء:٢٠٨)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يونس:١٣)، فقد أهلك قوم نوح وصالح وهود وشعيب وفرعون أملياءهم وضعفاءهم الذين لم يؤمنوا، أما من آمن فقليل جداً من الضعفاء في بعض الأقوام، أما ملأ قريش فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فأما الكفار منهم فقد أهلكهم الله في غزوة بدر كما تروي سيرة الرسول ﷺ فقد دعا عليهم الرسول فاستجاب الله دعاءه، قال النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ المَلأ مِنْ قُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ

عَلَيْكَ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيْعَةَ، وشَيْبَةَ بْنَ رَبِيْعَةَ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطَ، وأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، أو أَبَيَّ بْنَ خَلَفَ"، قال عبد الله: "فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتُلوا يَوْمَ بَدْرٍ، فَأُلْقُوْا فِي بِئْرٍ غَيْرَ أُمَيَّةَ، أو أُبَيَّ، فَإِنَّه كانَ رَجُلاً ضَخْمَاً، فَلَمَّا جَرُّوهُ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ قَبْلَ أَنْ يُلْقَى في البِئْرِ"([٥٦]).

ثالثاً: الدعوة إلى الله لا تعول على الملأ:

تبين من العرض السابق أن لا يعول على هذه الفئة لإقامة حكم الله في الأرض ولا يجوز إهمال عامة الناس على حساب التركيز على الملأ، ولا يجب أن نغفل من الدعوة وتكاليفها انتظاراً منا لأن يصلح حال هؤلاء الملأ.

ولم يغفل القرآن هذا الجانب، بل أولاه أهمية خاصة، وفي توجيه الله لرسولنا محمد ﷺ في هذا الشأن لعظة ودرسين عظيمين. يقول تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول.. فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ (الذاريات: ٥٢-٥٥). ويقول تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون... وكان أمره فرطاً﴾، ويقول: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا... إني إذا لمن الظالمين﴾.

رابعاً: إصلاح الفساد في هذا العصر([٥٧]):

كما هو معلوم فإنَّ منهج القرآن الكريم في التعامل والإصلاح يصلح لكل زمان ومكان؛ لأنه منهج من رب العالمين، الذي يعلم ما يصلح البشرية، ويقوم اعوجاجا في كل الأزمنة والأمكنة؛ لذلك كان لابد للمسلمين الآن وهم يعيشون محنهم الكثيرة من الرجوع إلى منهج القرآن الكريم؛ ليسترشدوا به لإصلاح ما ألم بهم من فساد في عقائدهم، وأخلاقهم، نتيجة فساد القائمين عليهم، ومن الطبيعي أن نُعَرِّجَ بنقاطٍ سريعةٍ على ما يجب على الأمة فعله، استرشاداً بمنهج القرآن الكريم لإصلاح ما أصابها من ضرر، ومن خذلان.

أولاً- محاولة إصلاح الحاكم:

١- دعوته إلى إصلاح ذاته بالحكمة والموعظة الحسنة يدعوه بها أهل الصلاح والرأي، وقدوتنا في ذلك قوله تعالى لموسى حينما أرسله إلى فرعون وملإه: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي(٤٢) اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(طه:٤٢-٤٤).

٢- دعوته إلى حسن اختيار بطانته، وأهل مشورته، والقائمين على إدارة البلاد من وزراء، وتقريب أهل الصلاح منهم، "ما عدل من جار وزيره، ولا صلح من فسد مشيره، وحقيق على كل ملك أن يتفقد وزيره، وندیمه، وكاتبه، وحاجبه، فإنَّ وزيره

قوام ملكه، ونديمه بيان عقله، وكاتبه دليل معرفته، وحاجبه برهان سياسته"([٥٨]). وقال ابن حزم: "ويتخذ من وجوه الكتاب، والعلماء، والقضاة، والأمراء قوماً ذوي سديدة، وكتمان للسر، فيجعلهم وزراءه الذين يحضرون مجلسه، يلازمونه في التدبير لجميع ما قلده الله تعالى من أمور عباده"([٥٩]).

٣- تبصيره بواقع الأمة، وحثه على إصلاح الفساد.

٤- تبصيره بحقوقه وواجباته تجاه شعبه وأمته، وتهيئة البيئة الإيمانية الصحيحة له.

٥- تبصيره بأعداء الأمة، وكشف مخططاتهم.

٦- حثه على إقامة العدل والحكم بما أوجبه الله عليه، "فمن تعزز بالله لم يذله السلطان، ومن توكل عليه لم يضره إنسان، ومن استغنى بالله عن الناس أمن عوارض الإفلاس، ومن صح دينه صح يقينه"([٦٠])، فإن لم يستجب لدعوات الإصلاح فعلى علماء الأمة المخلصين دعوة عامة الأمة إلى ما يجب عليهم فعله تجاهه للتخلص منه، بما يضمن الحفاظ على وحدة الأمة وحقوقها وحقن دمائهم بقدر المستطاع.

ثانياً: إصلاح ملأ الأمة:

ونقصد بهم أصحاب الرأي والنفوذ في الأمة من علماء وحكماء، ومفكرين ودعاة، واقتصاديين وسياسيين، فمنهم المستشارون والوزراء والبطانة، وبصلاحهم يصلح الحاكم، وبفسادهم يفسد الحكم والحاكم، كما أنَّ لهم تنفيذاً في العامة وتأثيراً لكونهم صفوة المجتمع، وبهم يسترشد العامة والخاصة، وبأفكارهم يتشكل فكر المجتمع وتوجهاته، ويكون إصلاح المفسدين منهم بتبصيرهم بالحق ودعوتهم إليه، ونصحهم بترك المفاسد، وحثهم على إصلاح أنفسهم، وهذه وظيفة القائمين على الدعوة من علماء ومصلحين، ومن وسائل إصلاحهم المحاورات والمناظرات التي تستند إلى كتاب الله والسنة، والشواهد التاريخية، وإقناعهم بما يجب عليهم تجاه شعبهم وأمتهم.

ثالثاً: إصلاح عموم الأمة:

القاعدة الرئيسة في إصلاح عموم الأمة هي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤)، وقوله تعالى:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(آل عمران:١١٠)، فهذه وظيفة كل إنسان تجاه غيره بصفة عامة، ووظيفة الدعاة والمصلحين بصفة خاصة،

ويكون محور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الآتي:

١- عقيدة العامة: بإصلاح الفكر، وتقوية إيمانهم وتبصرتهم بالمفهوم الحقيقي للإيمان بالله، وما دخل في اعتقادهم وعبادتهم من أمور ليست من أمور الإيمان، أو من الشرع، وحثهم على تركها، وتصحيح إيمانهم بالحكمة والموعظة الحسنة دون تنفير.

٢- سلوك العامة: إصلاح السلوك بالقدوة الحسنة، وتبصير العامة بسنة الرسول ﷺ وسيرته.

٣- تبصير العامة بحقوقهم وواجباتهم تجاه أنفسهم وتجاه غيرهم.

٤- تربية كل فرد من الأمة على الاعتزاز بدينه، وألا يكون إمعة، إنْ أحسن الناس أحسن إليهم، وإنْ أساءوا أساء، بل ينظر في الأقوال والأفعال، ويعرضها على السنة والشرع، ويسلك مسلك الحق؛ لينهض، وينقذ نفسه وأمته من الفساد والخذلان.

خاتمة البحث:

بعد هذا الاستعراض للمباحث الثلاثة نخلص إلى نتائج منها:

١- أنَّ مفهوم البطانة غير مفهوم الملأ، فمفهوم البطانة خاص بمن يحيط بالشخص أو الحاكم، ويكون في موقع استشارته، وتكوين أفكاره، ويطلع على أخص أسراره، وقد يكون شخصاً أو أشخاصاً عدة، وقد يكون مشهوراً بحسن الخلق أو سوئه، وقد يكون من قومه ومن غيره، أما الملأ في مفهوم القرآن الكريم: فيطلق على سادة القوم وأشرافهم ووجهائهم في مرحلة ما قبل الملك والسلطان، ويتسع معناه في عهد الملك والسلطان فيطلق على علية القوم من أشراف وسادة ووزراء وسياسيين، وحتى قادة الجند ورجال الدين يدخلون في ذلك.

٢- أغلب من أُطلق عليه مصطلح الملأ في القرآن الكريم كانوا من ناصبوا العداء لله ورسله.

٣- من الملأ مَن كان له سطوة وتنفذ، وتأثير في توجه المجتمع العقدي والأخلاقي، ومنهم مَن كان في موضع المشورة فقط، ومنهم مَن كان في مقام التنفيذ والخضوع فقط.

٤- من خلال استقراء صفات الملأ في القرآن الكريم تبين أن جميع الكفار من الملأ قد اشتركوا في صفات عدة، وأخلاق كانت انعكاساً لكل ما كانوا عليه من ترف وكفر، فقد اتصفوا بالعلو والاستكبار والفسوق والإجرام والتعالي على شعوبهم، وكان لهم دورٌ بارزٌ في الإضلال ومحاربة دعوة الحق.

٥- عامة الشعوب تتأثر بصفواتها فكرياً وخلقياً؛ لذلك كان لمعظم الملأ تأثير مباشر في مسلك المجتمعات العقدي والأخلاقي.

٦- منهج القرآن الكريم في إصلاح الفساد الذي أحدثه الملأ في المجتمعات البائدة تمثل: أولاً- بإرسال الرسل للدعوة والإرشاد، ثانياً- بإنزال عقوبته بالمفسدين عندما لم تجد محاولة الإصلاح.

٧- لا يمكن إصلاح الفساد الذي ضرب الأمة إلا بإصلاح الراعي والرعية وملأ الأمة وفق منهج القرآن الكريم القائم على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هوامش البحث:

[1]) انظر: النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٦هـ، (٦٦٤/١)/ ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ، (٨-ب/١٩٠)/ أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، (٥٥٩/٢).

[2]) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية: دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ط/١، ١٤١٠هـ، (ص:٦٧٣).

[3]) أبو جعفر النحاس، معاني القرآن، تحقيق: محمد الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط/١، ١٤٠٩هـ، (٦٢/٣).

[4]) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط/١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، (٣٦٤/٢).

[5]) ابن سيده، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ط/١، (١٢/٥).

[6]) جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، (٣٠٤/٢).

[7]) انظر: ابن منظور، لسان العرب (١٥٨/١) باختصار/ الزبيدي، تاج العروس (٤٣٦/١).

[8]) انظر: السجستاني، غريب القرآن، (ص/٤١١) / شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق: د. فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة، ط/١، ١٩٩٢م، (ص:١٣٢).

[9]) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦٦٥/١)/ ينظر: شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥هـ (٣٨٩/٤).

[10]) الفيروزآبادي،بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ،تحقيق:محمد النجار ،(ص:١٤٢٥).

[11]) انظر: الحديث بطوله في صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها، (٤٧٢/١ح٦٨١).

[12]) أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط/٢، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، (٢٤٣/٣).

[13]) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط/١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م،(٣٤٦/٥).

[14]) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح: محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١٤١٥،١هـ،(٢٣٢/٢)،وفي هذا المعنى إشارة إلى أن الأصل في صفات الملأ حسن الخلق.

[15]) ارجع إلى تفسير الآية في كتب التفسير (آل عمران:١١٨).

[16]) انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر-بيروت،ط/١،(٥٢/١٣).

[17]) الزبيدي، تاج العروس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية(٢٦٣/٣٤).

[18]) انظر: ابن منظور، لسان العرب، (٥٢/١٣)، مادة بطن/ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناجي، المكتبة العلمية، ط/١٣٩٩/١هـ،(١٣٦/١).

[19]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الأحكام، باب: بطانة الإمام وأهل مشورته، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق: د. مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة،ط/١٤٢٢/١هـ، (٧٧/٩ح٧١٩٨).

[20]) أنظر: المعجم المفهرس: محمد عبد الباقي: ص: ١٢٤.

[21]) المعجم المفهرس، محمد عبد الباقي، ص: ٦٧٢. (وردت ٢٩ مرة بلفظ الملأ – ملأه – مائه – ملئهم وغيرها) ،

[22]) عجائب القرآن الكريم الدليل على صدق التنزيل، زياد داوود السلوادي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ajaeb.quraan@hotmail.com

[23]) المعجم المفهرس، محمد عبد الباقي، ص: ٦٧٢.

[24]) المعجم المفهرس، محمد عبد الباقي، ص: ٦٧٢.

[25]) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص:٧٧٦- ٧٧٧.

[26]) قاسم خضر، شخصية فرعون في القرآن، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور: محسن الخالدي، جامعة النجاح الوطنية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، (ص:١٦٢)، ببعض التصرف.

[27]) الطرطوشي، سراج الملوك، مصر،١٢٨٩هـ، ١٨٧٢م، (ص: ٧٠).

[28]) سنن أبي داود، كتاب: الخراج والإمارة، باب: في اتخاذ الوزير (١٣١/٣ح٢٩٣٢)، صحيح ابن حيان، باب: ذكر وصف الوالي الذي يريد الله به الخير أو الشر (٣٤٦/١٠ح٤٤٩٤). قال النووي في رياض الصالحين (ص:٢١٧): رواه أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم.

[29]) الطرطوشي، سراج الملوك(ص:٦٩-٧٠).

[30]) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، (٥٠٧٨/١٠).

[31]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٤٧/١١).

[32]) أبو زهرة، زهرة التفاسير، (٣٦٢٠/٧).

[33]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٦٨/١١-٢٧٠).

[34]) انظر: الطبري(٢٩/١٩)/تفسير أبي السعود(١٣٣/٦)/ نعمة الله بن محمود النخجواني،الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية،(٥٦٩/١)/التحرير والتنوير (٥٢/١٨).

[35]) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٢٤٦٧/٤).

[36]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٥/٩-٣٧) باختصار.

[37]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٥/٩).

[38]) انظر: محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (١١٥/٢).
[39]) انظر: علي بن نايف الشحود، المفصل في فقه الدعوة، (١٢/٢).
[40]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (٣١٦/٤).
[41]) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٤٢/١٨).
[42]) ابن عطية، المحرر الوجيز،(٤٢٩/٢).
[43]) أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم،٢٥١/٣)، وينظر:التحرير والتنوير،(١٢/٩).
[44]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٢٢/٨-٢٢٣) باختصار.
[45]) سيد قطب، في ظلال القرآن (١٣١٣/٣).
[46]) انظر: الخبر بتمامه في صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ "، ح(٤٥٥٣)، (٣٦/٦).
[47]) محمد دراز، دستور الأخلاق في القرآن، (ص:٢١).
[48]) صحيح البخاري، كتاب: باب فضل من استبرأ لدينه، ح(٥٢)، (٢٠/١)، وصحيح مسلم، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، ح(١٥٩٩)، (١٢١٩/٣).
[49]) ابن تيمية، مجموع الفتاوي،تحقيق:أنور الباز،عامر الجزار،(١٨٦/٧-١٨٧)،باختصار وتصرف.
[50]) انظر: محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، (ص:١٥٣-١٧٣) باختصار.
[51])انظر:عبد الرحمن الكواكبي،طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد،(ص:١٠٧)،باختصار وتصرف.
[52]) ابن عاشور، التحرير والتنوير،(٨- ب/٢٤١-٢٤٢).
[53]) مما يجدر الإشارة إليه هنا أن الله-جل جلاله- حينما أرسل موسىﷺ إلى فرعون وملئه، لم يبدىء دعوته إليهم كما ابتدأ الرسل الآخرون دعوتهم لأقوامهم، من عبادة الله، وترك عبادة الأوثان، وإنما دعاهم إلى إطلاق سراح بني إسرائيل بصفته رسول من رب العالمين، قال تعالى: ﴿"فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء:١٦-١٧)؛ لنه أُرسل إلى بني إسرائيل ولم يُرسل إلى فرعون وملئه ابتداءً، فكان من الطبيعي أن تكون دعوته إلى بني إسرائيل متضمنة دعوة من يسيطرون عليهم ويعبدونهم، حتى يتم تحريرهم، وقد أيد الله موسى بالمعجزات؛ لتكون برهاناً على صدق رسالته، وحافزاً لفرعون وملئه أن يفعلوا ما أُمروا به، وقد كانت محاجة بين فرعون وموسى كانت من خلالها دعوة فرعون للإيمان، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ(٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء:٢٣-٢٨).
[54]) الطرطوشي، سراج الملوك (ص:١١٧) بتصرف.
[55]) انظر: أبو علي المودودي، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، (ص:٨-٩).
[56]) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب: طرح جيف المشركين في البئر ولا يؤخذ له ثمن (٣١٨٥)،(١٠٤/٤).ورواه البخاري في مواضع عدة من صحيحه،ومسلم من طرق أخرى، البداية والنهاية، (٤٤/٣).
[57]) مما تجدر الإشارة إليه أن هناك بحثاً قيماً للدكتور: نصنر نصار، نشر في مجلة دمشق تحت عنوان: إصلاح الأمة في ضوء الكتاب والسنة، فليرجع إليه ففيه فائدة كثيرة.
[58]) محمود بن إسماعيل بن إبراهيم الخيربيتي، الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء

(ص:٧٢).

[59]) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: د.علي سامي النشار، (٣٥١/١).

[60]) الخيربيتي، الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والأمراء (ص:٧٢).

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- ابن الأثير، المبارك بن محمد بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية، بيروت ط/١/١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناجي، ج/١.

٢- ابن الأزرق، محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، بدائع السلك في طبائع الملك، وزارة الإعلام العراق، ط/١، تحقيق: د.علي سامي النشار، ج/١.

٣- ابن الحجاج، مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل إلى رسول الله ﷺ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج/١، ج/٣.

٤- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، مجموع الفتاوي، دار الوفاء، ط/٣، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، ج/٧.

٥- ابن حبان، محمد صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ج/٢.

٦- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، البحر المحيط، دار الفكر، بيروت، ط١٤٢٠هـ، تحقيق: صدقي محمد جميل،ج/٢.

٧- ابن سيده، علي بن إسماعيل النحوي، المخصص، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ج/٥.

٨- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ، ج/٨-٩-١١-١٨.

٩- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت،ط/١٤٢٢،١هـ، تحقيق: عبد السلام محمد، ج/٢.

١٠- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ط١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج/٥.

١١- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧هـ، ج/٣.

١٢- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ج/٢-٤.

١٣- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط/١، ج/١-١٣.

١٤- أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج/٣-٦.

١٥- أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج/٣.

١٦- أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، ج/٧-١٠.

١٧- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، بيروت ط/١، ١٤١٥هـ، تحقيق: علي عطية، ج/٤.

١٨- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول اللهﷺ وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، ط/١، ١٤٢٢هـ، تحقيق:محمد زهير بن ناصر

الناصر، شرح وتعليق: د.مصطفى ديب البغا، ج/١-٤-٦-٩.
١٩- الجياني، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، التبيان في تفسير غريب القرآن، دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة، ط/١، ١٩٩٢م، تحقيق: د. فتحي أنور الدابولي.
٢٠- الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥هـ، تصحيح: محمد علي شاهين، ج/٢.
٢١- خضر، قاسم توفيق قاسم، شخصية فرعون في القرآن، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، إشراف الدكتور: محسن الخالدي.
٢٢- الخَيْرَبَيْتي، محمود بن إسماعيل بن إبراهيم، الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
٢٣- دراز، محمد بن عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، ط/١٠، ١٤١٨هـ.
٢٤- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين، ج/١-٣٤.
٢٥- الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت، ط/١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ج/٢.
٢٦- السجستاني، محمد بن عزيز أبو بكر العُزيري، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، دار قتيبة، سوريا، ط/١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران.
٢٧- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ج/٢.
٢٨- الشحود، علي بن نايف، المفصل في فقه الدعوة إلى الله، ج/٢.
٢٩- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ج/٢.
٣٠- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة،ط/١٤٢٠،١هـ،٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد محمد شاكر،ج/٧-١٩.
٣١- الطرطوشي، محمد بن محمد بن الوليد الفهري، سراج الملوك، مصر،١٢٨٩هـ، ١٨٧٢م.
٣٢- الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار.
٣٣- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية،القاهرة، ط/٢، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ج/٣.
٣٤- قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط/١٧، ١٤١٢هـ، ج/٣-٤.
٣٥- قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين.
٣٦- الكواكبي، عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، المطبعة العصرية، حلب.
٣٧- المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، دار الفكر المعاصر، ٣٨- بيروت، دمشق، ط/١، ١٤١٠هـ، تحقيق: د. محمد رضوان الداية.
٣٩- المودودي، أبو الأعلى، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
٤٠- النحاس، أبو جعفر، معاني القرآن،جامعة أم القرى، ط/١، ١٤٠٩هـ،تحقيق:الصابوني، ج/٣
٤١- النخجواني، نعمة الله بن محمود، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، دار ركابي للنشر، الغورية، مصر،ط/١، ١٤١٩ه، ١٩٩٩م، ج/١.